وقد اعتمد بعض الناس على فكرة أن الاختلاف هو في حد ذاته مفسدة، وانحطاط، فإن قيل إن الأمة الإسلامية ، وهي أمة النبي عليه الصلاة والسلام تفترق فرقا أكثر عددا من اليهود والنصارى، فكيف يقال بخيرية هذه الأمة على من عداها من الأمم؟؟

وهذا السؤال قد يبدو وجيها، لأول وهلة، إلا أننا لا نسلم مطلقا بأن الاختلاف مذمة مطلقا، وأن الاختلاف يستلزم انحطاط شأن هذه الأمة عن غيرها من الأمم.

وإن سلمنا نزول مرتبة الاختلاف في بعض الحالات عن مرتبة الاجتماع والتوافق، فإننا لا نسلم أن كل صور الاختلاف مستلزمة الانحطاط المدّعى، فإن أمة سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، وإن سلمنا تفرقها فرقا أكثر من فرق اليهود ومن فرق النصارى، إلا أن هذا الافتراق في أمة النبي عليه الصلاة والسلام، لم يستلزم نزول حالها على سبيل العموم، لأنه مع هذا الافتراق، فإن فرقة أهل الحق، وهي فرقة أهل السنة والجماعة لم تزل هي الغالبة على مرِ العصور والأزمان، ولم يزل عدد العلماء العاملين منها أكثر بكثير من أعداد العلماء من سائر الفرق مجتمعة، بخلاف التفرق الحاصل في اليهود والنصارى، فإنهم كانوا فرقا متساوية أو متكافئة، مما استلزم الضعف في تلك الأمم، بخلاف الأمر في أمة الإسلام. فإن كون أهل السنة والجماعة الأكثر عددا، والأوفر علماء على مرّ العصور، وفي مختلف الأمكنة، لم يؤثر وجود فرق أخرى بجانبها وإن كثر عددها كما أثر في غيرها من الأمم.

أي إن الأثر السلبي الحاصل من التفرق في الأمم الأخرى، لم يحصل بالصورة نفسها في الأمة الإسلامية.

ومهما خالف المخالفون في هذا الحديث، ومهما شككوا في سنده، فإن الواقع يثبت أن الأمة قد اختلفت بالفعل ، فلم يبق بعد حصول الاختلاف فائدة في أن نقول لا يصح الاستناد إلى الحديث لأنه ضعيف أو لأن في سنده إشكالات.

فالحس والواقع يثبت قدرا كبيرا من دلالة الحديث إذن.

والحاصل من هذا كله أن التفرق كائن في هذه الأمة، والاختلاف حاصل فيها، كما هو في غيرها.

والمهم المقصود عند علماء الإسلام والعديد من المفكرين في هذه الجهات، هو في العلاقة بين التعايش والتعاون بين المسلمين في ظل وجود هذا الاختلاف؟ ما موقفهم منه.

وأنا وإن كنت سأتكلم باختصار حول هذا المعنى، في نهاية كلمتي هذه، إلا أنني أحببت أن ألفت أنظاركم الكريمة إليها ههنا، لما لهذا الالتفات من أهمية في موضوعنا الرئيس.

ولا يخفى على حضراتكم أن الاختلاف حصل منذ العصور الأولى، أي منذ عصور الصحابة والتابعين، فالخوارج، وبدايات التشيع ، والقدرية القدماء، وغيرهم، برزوا في الأمة الإسلامية منذ العصور الأولى الموصوفة بالخيرية، بل إن العديد من الفرق التي كانت موجودة في تلك العصور، لم تعد موجودة في عصورنا هذه ولا في العصور التي قبل عصرنا، وهذا مما يدلّ

على عدم التلازم المدّعى بين الاختلاف فرقا، وبين الانحطاط، كيف يقال ذلك؟! وقد شهد النبي عليه الصلاة والسلام بالخيرية للعصور الأولى.

وكل هذه الفرق التي أشرنا إليها، إنما أصبحت فرقا، لأنها فارقت أهل السنة والجماعة، أهل الحق، وإنما حصل الاختلاف لأنهم خالفوا أهل الحق. فلذلك فقد تميزت كل فرقة عن أهل السنة بأفكار ومبادئ معينة، وبقيت أهل السنة متميزة بأصل الانتماء إلى الإسلام، ولم يرَ العلماء من أهل السنة ضرورة لإعلان تميزهم عن غيرهم، أو تميز غيرهم عنهم، إلا بعد عشرات السنين، لما اشتد عود المخالفين، ونصبوا الخلاف مع أهل السنة، وصاروا يغالون ويدعون أنهم أهل الحق دون غيرهم. فلما لاحظ أهل السنة والجماعة ذلك من المخالفين، تصدى العلماء منهم والمحققون إلى التأليف والتفريق بين الحق والباطل، وربما كان هذا أحد أكبر الأسباب في إمكان تميز المعتزلي والشيعي والخارجي والقدري بعلامات خاصة لكل واحد منهم، بينما يعتبر من ليس من هذه الفرق باقيا على الأصل القديم، وهو أصل أهل السنة والجماعة.

أصل فكرة السلف والخلف

سوف نوضح مفهوم السلف والخلف عند علمائنا المعتبرين وعند المخالفين من الوهابية وغيرهم ممن وافقهم. لنبين الأصول الكلية التي تنبني عليها هذه الفكرة، وهذا سيكون بمنزلة القواعد المؤسسة لدراسة أثر الوهابية والمتابعين لابن تيمية لانبناء فكرتهم في جهة كبيرة على هذا المفهوم.

علمائنا السلف والخلف عندأولا:

من المعلوم لدى حضراتكم أيها السادة الأفاضل والعلماء الأكارم، أن هناك في تاريخنا العلمي فكرة السلف والخلف، وكان مفهوم السلف والخلف مفهوما زمانيا فقط، وليس مفهوما فاصلا لماهيات من تقدم عمن تأخر، بحيث يكون من اتسم بأنه ليس من السلف، مكروها، ومن اتسم بأنه من السلف محمودا مطلقا.

وقد كان العلماء المحققون من أهل السنة، عندما يتكلمون بهذا المصطلح، إنما يعنون هذا المعنى أصالة.

وكانوا إذا أطلقوا المدح على السلف، يقصدون من تحقق أنه كان من أهل السنة الموجودين في زمان السلف، الذين تم تحديدهم تحديدا تقريبيا شائعا في القرون الثلاثة الأولى.

فلا يخفى على العلماء الأفاضل أن العديد من الفرق كما ذكرنا كانوا موجودين في زمان السلف بهذا التعريف، فالقدرية ظهروا في عصر الصحابة والتابعين، وكذلك الغلاة من الشيعة، والعديد من فرق المجسمة كان ظهورها مبكرا في التاريخ الإسلامي، ويستحيل أن يقال على كل هؤلاء أنهم كانوا ممدوحين محمودين لمجرد كونهم وجدوا بغير اختيار منهم في زمان متقدم هو القرون الثلاثة الأولى.

ولدقة نظر علمائنا، فقد كانوا يفرقون بين السلف الذين هم من أهل الحق، والسلف الذين كانوا قد نصبوا الخلاف معهم. فمدحهم للسلف مصروف قطعا إلى أهل السنة والجماعة من

كان منهم سلفا متقدما في الوجود الزماني، لا إلى غيرهم وإن كانوا سلفا.
وتبعا لهذا الاعتبار، فقد درج العلماء على تسمية من أتى بعد هذه القرون بالخلف، فنشأ لهذا مصطلحا السلف والخلف بهذا الاعتبار.
فصار أهل السنة بعضهم من السلف وبعضهم من الخلف بهذا الاعتبار.
وقد فرق المحققون من العلماء بين السلف والخلف على سبيل العموم، من حيث المنهج من جهة الإجمال، لا من حيث الصواب والباطل.
يعني أن الأكثر من السلف درجوا في معالجة المسائل ومزاولة العلوم على الإجمال إلا في بعض الأحوال، والمسائل، وهذا الحكم ليس كليا، بل أغلبيا. بينما درج الخلف في تناولهم للعلوم ودراستهم للمسائل على سبيل التفصيل والتحقيق والتنقيح، وابتعدوا عن الإجمال كثيرا.
وهذا الحكم عليهم ليس حكما كليا بحيث لا يشذ عنه أحد منهم، بل هو حكم أغلبي أكثير أيضا، ما قلنا في شأن حال السلف.
ومن هنا فقد قال العلماء مثلا في مسألة التأويل والتفويض والوصول منهما إلى مذهب التنزيه: إن طريقة السلف التفويض، وبعضهم أول، وإن مذهب الخلف التأويل وبعضهم فوض. وكل من التأويل والتفويض طريقة معتبرة معتدٌ بها عند أهل السنة، المتقدمين والمتأخرين منهم، وهاتان الطريقتان تؤدي كل منهما إلى التنزيه الذي هو المذهب الكلي لأهل الحق.
إذن كل من السلف والخلف عند علمائنا أهل السنة على الحق، وليسوا مخالفين له ولا منحرفين.
فنحن نعتقد إذن باستمرار اتصال الحق بين علماء السلف والخلف من أهل الحق (الأشاعرة والماتريدية)، على عقيدة واحدة، فلم تحصل فترة عندها حصل التقاطع والتدابر بينهما.
ثانيا: السلف والخلف عند المخالفين
رأينا أن أصل هذه الفكرة عندنا تنبني بناء طبيعيا على التدرج الزماني في الترقي في العلوم والمعارف تفصيلا وإجمالا.
ونحن نقصد بالمخالفين هنا أصالة، الوهابية ممن تبعوا الشيخ محمد بن عبدالوهاب، وغيرهم بالتبع من العلمانيين كما سنبين.
فلنركز على حقيقة فكرة الوهابية، أو التيمية أي أتباع ابن تيمية، كما أحب أحيانا أن أسميهم.

كاتب المقالة : سعيد فوده
تاريخ النشر : 02/06/2013
من موقع : د / عاطف الكومى الأسيوطى
رابط الموقع : http://al-koomy.com